سوسيولوجيا النص الروائي من باختين إلى بيار زيما

د. الشريف حبيلة
جامعة العربي التبسي - تبسة

ملخـــــص:

يناقش المقال بعض أهم النظريات والآراء، التي ربطت بين الأدب عامة والرواية خاصة وبين التحولات الاجتماعية، بحيث يتناول مجموعة من نماذج مثلت مراجع الدراسة السوسيولوجية للرواية، إلى أن نضجت في شكل المنهج السوسيونصي، مع الإشارة إلى بعض المنعطفات التي ربطت بين هؤلاء، ويكشف عن العلاقة القائمة بين المجتمع وتغيراته، وبين الأدب في مقدمته النص الروائي؛ لذا يستعرض المقال الدراسة السوسيونصية للأدب، تأسيسا على ما قدمه (لوكاتش) و(غولدمان)، وصولا إلى (باختين) و(بيار زيما) اللذين بلورا المنهج السوسيونصي، والقصد من هذا العرض جعل الآراء المعروضة تنساب في شكل حواري؛ أي وجهات نظر تتحاور فيما بينها، حتى نتمكن من النظر إليها معا، لأجل الاستفادة منها بشكل أفضل، وهي تتقدم كأصوات متعددة تحقق التواصل بين النص الروائي والقارئ بإزالتها الحجاب عن النصوص، ثم تقديمها للمتلقي.

مقدمة:

لقد قدمت المجتمعات عبر الزمن آدابا عبرت عنها بطريقة مباشرة، أوغير مباشرة، تناولها الباحثون بالدراسة. في مجالات معرفية مختلفة. من بينها تلك التي حاولت البحث عن العلاقة القائمة بين الأدب والمحيط الاجتماعي انطلاقا من الخلفية الفكرية والفلسفية والأيديولوجية لهؤلاء الدارسين، وتعود البذور الأولى التي تناولت هذه العلاقة إلى فكرة المحاكاة عند (أفلاطون) و(أرسطو)، وعلاقة الأدب بالواقع السياسي، وأصحاب السلطة كما ظهرت عند (ابن خلدون) في "المقدمة".

لكن التنقيب عن مثل هذه الدراسات التي اهتمت بالعلاقة بين الأدب والمجتمع ترهق الباحث، وتضطره إلى قطع مسافة زمنية طويلة، حتى يصل إلى أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر حيث ظهرت أهم وأكبر المحاولات التأسيسية التي مهدت لتأسيس علم اجتماع الأدب، الذي موضوعه الأدب، ثم سوسيولوجيا النص الأدبي.

لذلك فإن الدراسة ستناقش بعض أهم النظريات والآراء، التي ربطت بين الأدب عامة والرواية خاصة وبين التحولات الاجتماعية، بحيث نتناول مجموعة من نماذج مثلت مراجع الدراسة السوسيولوجية للرواية، إلى أن نضجت في شكل المنهج السوسيونصي هذه النماذج هي: (مخائيل باختين، بيار زيما)، مع الإشارة إلى بعض المنعطفات التي ربطت بين هؤلاء. وتكشف لنا عن العلاقة القائمة بين المجتمع وتغيراته، وبين الأدب في مقدمته النص الروائي.

وقد انطلقت نظريات الرواية ومناهج دراسة الرواية من دراسات حول علاقة نشوء الرواية وتطورها بمجمل التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في عصر محدد وهي تحولات ساهمت في تشكيل الأنواع الأدبية التي أثرت الشكل الأدبي تنوعا واختلافا وقد تأسست هذه النظريات والآراء النقدية على الأسس الفلسفية للمنظرين، الذين اشتغلوا في هذا الميدان.

أولا – التحليل السوسيولوجي للأدب:

الأدب واقعة اجتماعية تفرزها تحولات المجتمعات في مرحلة ما، لذا فهو تعبير عن تركيب مجتمع بعينه، يعبر عن فكر جماعة وأيديولوجيتها. هنا يأتي دور الباحث الماركسي الذي يتوجب عليه البحث عن الأفكار التي تسيطر على العمل الأدبي، فيقوم بترجمة فكرة النتاج من وجهة نظر علم الاجتماع، أومايسمونه بالمعادل السوسيولوجي في الظاهرة الأدبية، وبترابط العمل الأدبي بالظاهرة الاجتماعية يصير لديها كيانا واحدا، تكون دراسته مقرونة بالعودة إلى المرجعية الاجتماعية، أو الأيمولوجية بما أن الأدب يمثل في أحد أبعاده إنتاجا أيديولوجيا؛ تتخذه الطبقات الاجتماعية وسيلة للتعبير عن أفكارها ورؤيتها للعالم، وتظهر الدراسة السوسيولوجية مهتمة بالعوامل الاجتماعية المحيطة بالكاتب، كيف يتأثر بالشروط الاجتماعية التي بإمكانها توجيهه لتبني أو إنتاج شكل ومعنى ما؟

ويرى (رينيه ويليك) و(أوستن وارين) أن دراسة الأدب يجب أن تكون من خلال رؤيتين، واحدة تتناول الأدب من الداخل، والأخرى من الخارج، يحلل الأدب في الأولى ويفسر، ويكون وحده المحدد للاهتمام بحياة الأديب، ومحيطه الاجتماعي وفعل الكتابة؛ وهنا يكون الاهتمام منصبا على بنية النص، إضافة إلى دراسة البعد الاجتماعي انطلاقا من النص ذاته، وفي الثانية يكون الاهتمام بالعوامل الخارجية المحيطة بالأدب، والمؤثرة فيه؛ حيث يتم تفسيره اعتمادا على السياق الاجتماعي الموجود فيها كالسيرة الذاتية للكاتب، والشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأيديولوجية وغيرها من العوامل الاجتماعية[1] تتم دراسة الأدب وفق هاتين الرؤيتين بالتركيز على العلاقة بين الأدب والشروط الخارجية، زد إلى ذلك التحليل الداخلي، أو النص في ذاته، وهنا يمكن الحديث عن (جورج لوكاتش) و(لوسيان غولدمان)

---

[1]– رينيه وليك وأوستن وارين: نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت(د ن ط) 1987ص85، ص145

كمنطلق تؤسس عليه عرض رؤية كل من (مبخائيل باختين) و(بيار زيما). فقد دفع (لوكاتش) بالنقد السوسيولوجي نحو النضج والاكتمال، وذلك من خلال رصد مفاهيم ثلاثة، في دراسة الرواية هي: البنية الديناميكية الدلالية، والوعي الممكن، والاحتمال الموضوعي؛ وهي مفاهيم تحقق غرضين في النقد: أولا استخلاص بنية دلالية للهواجس الجذرية، والجديدة في النقد الجديد الذي يجهد في تحقيق فاعلية إبداعا وكتابة ثانية على هامش الكتابة الأولى؛ ويحدد الثاني مجموعة من المنطلقات الأساسية لتكوين بنيوية روائية مستقلة عن الماركسية والانعكاس والتشيؤ وتتضح البنية الروائية في محور البطل الإشكالي الذي يبحث عن القيم الأصيلة في واقع منحط وهو الأساس المعتمد في تصنيف الأبطال، وإخضاعهم لمعيار الكثافة الاجتماعية والوجودية، لكن مبالغته في تقنية التصنيف جعلته يخرج عن الحدود الزمنية[2].

ويظل هذا الفهم محصورا في محتوى الرواية وقيمها، بينما يهمش البنية الشكلية لها، كاهتمامه بالطل الإشكالي الذي لا يعدو أن يكون جزءا من المضمون؛ وهي ميزة اتصف بها (لوكاتش) في تقديمه المضمون على الشكل، متأثرا بفكرة أولوية الروح على تجلياتها عند (هيجل)؛ وهي أفكار كلها تقع ضمن ثنائية الوعي والمادة. وهذا لا يعني أن (لوكاتش) أهمل الشكل تماما، إنما لم يجعله عنصرا أساسيا في بناء نظريته حول الرواية، ولا ننسى أنه من أرسى مفهوم الرؤية للعالم، الذي تطور في أعمال (لوسيان غولدمان)؛ وهو مفهوم يتجاوز الأيديولوجيا ليشمل كل ما يخص الإنسان، رغم أنه ذو خصوصية فردية، ومع ذلك يعتبر نتاج المجتمع الذي يعيش فيه الكاتب، حيث تصبح الرؤية رؤية المجتمع للعالم، هنا يبدأ (لوكاتش) مرحلة جديدة في ميدان النقد السوسيولوجي بعيدا عن الانعكاس الآلي المؤطرة للعلاقة بين الرواية والواقع، يبحث عن تصور الكاتب ورؤيته للواقع. ويصير الانعكاس عند (لوكاتش)

---

[2]– عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب ط1/1988 ص125

غير ساذج بسيط، بل يمر عبر وسيط هو الرؤية للعالم، يكشف تحليلها البناء العام للرواية.

أما (وسيان غولدمان) فيؤكد على العلاقة بين الرواية والوعي الممكن للجماعة التي تتخذ المبدع وسيلة تعبر من خلاله عن نفسها، ومن ثم فكل دراسة تربط بين الرواية والواقع الراهن للجماعة، إنما تقع في خطأ منهجي، لأن العمل الأدبي كما بين (غولدمان) هو تعبير عن طموح الجماعة التي ينتمي إليها؛ أي الوعي الممكن لها.

ينطلق (غولدمان) في تأسيسه للنقد السوسيولوجي المسمى بالبنيوية التكوينية، من فرضية «أن العلاقة بين حياة المجتمع والخلق الأدبي لا تتصل بمضمون هذين القطاعين من الواقع الإنساني عموما، وإنما تتصل بالأبنية العقلية أساسا، أي يمكن أن يسمي المقولات التي تشكل الوعي الإمبريقي لمجموعة اجتماعية بعينها وبالعالم التخيلي الذي يخلقه الكاتب»[3].

يتمسك (غولدمان) بمبادئه الجدلية التي نلمحها في دراساته التي تركز على الوعي الممكن كوسيط بين الرواية والواقع الاجتماعي. وهي النقطة التي فتحت عليه بعض الملاحظات من طرف أصحاب سوسيولوجيا النص الأدبي، خاصة تركيزه على الأسس الفلسفية التي تحكم علاقة الرواية بالوعي والواقع، رغم تأكيده على دراسة النص الروائي من الداخل، وتحليل بنيته الداخلية كمرحلة أولى في منهجه، وهو ما سماه بالفهم، لأنه لم يطمح هذه المرحلة الشكلية بأدوات إجرائية تنضج الفهم، وراح يستسلم للحدس الخاص في الكشف عن البنية الدالة للنص.

وفي الحقيقة كان (غولدمان) يتبع خطى أستاذه (لوكاتش) عموما، مع تجاوزه بإدراج الدراسة الداخلية للنص كمرحلة من مراحل دراسة الرواية، دون ربطها بما هو خارج عنها، حيث أرجأ ذلك إلى مرحلة لاحقة هي مرحلة التفسير، وإعطاء

---

[3]– لوسيان غولدمان : علم اجتماع الأدب، ترجمة جابر عصفور، فصول في النقد، مصر، ع2 يناير 1981 ص102

الأسبقية في التحليل لدراسة البنية الداخلية لنص الروائي يعبر تقدما كبيرا في إطار النقد الجدلي نحو الاهتمام بخصوصية الإبداع الروائي وإدراك ضرورة التعامل معه بأسلوب، يخالف تعاملنا مع أنماط الفكر الأخرى كالفلسفة والأيديولوجيا، وكل هذا جعل المنهج البنيوي المطبق على الرواية خاصة تصورا نقديا شديد المرونة، والاحتياط في التعامل مع الإبداع، ولعله السبب في جعل (رولان بارت) رغم ميوله النقدية المخالفة، يرى في منهج (غولدمان) أكثر المناهج مرونة ومهارة في التاريخ الاجتماعي والسياسي[4].

ثانيا– سوسيولوجيا النص الروائي:

يمكننا القول أن بدايات سوسيولوجيا النص الأدبي كانت مع النظريات النصية، التي جعلت من النص محور العملية النقدية، وقد ظهرت بظهور الشكليين الروس، ثم استمرت مع البنيوية والسيميوطيقا، ونحن لا ندرج سوسيولوجيا النص الأدبي ضمن هذه المناهج، إنما فقط للقول أنها استفادت منها مثلما استفادت من الماركسية وغيرها. ومع هذا فإن ظهور سوسيولوجيا النص كرؤية واضحة واتجاه نقدي ناضج قد مثلته جهود (بيار زيما)، الذي أخرج ملامحه إلى الوجود، بعد ما كانت متوارية في دراسات (جورج لوكاتش، وغولدمان، وميخائيل باختين)، ويعد هذا الأخير في نظر الدارسين مؤسس سوسيولوجيا النص باعتباره سابقا غيره زمنيا، ويبقى (بيار زيما) الباحث الذي كشف جهوده في هذا المجال، حتى قدمه للقارئ في صورة ناضجة، لذا سنعرض وجهة نظر كل من (باختين وزيما)، في محاولة لبلورة معالم هذا الاتجاه.

وحتى لا يحدث الالتباس كان علينا أن نحدد الفرق بين سوسيولوجيا الرواية، وسوسيولوجيا النص الروائي، وقد فعل ذلك من قبل (حميد لحميداني) في كتابه "النقد الروائي والأيديولوجيا"، حيث يرى أن الأولى منهج نقدي، يدرس الرواية مركزا على

---

[4]– حميد لحميداني: النقد الروائي والأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء ط1/1990 ص71

أسباب الظاهرة الروائية، والعناصر الخارجة عن النص؛ بينما تتناول سوسيولوجيا النص الروائي المستوى التركيبي للرواية، لتكشف من خلاله العلاقات الاجتماعية، من أجل إثبات التماثل الواقع بين البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في فترة تاريخية معينة، وبين البنية اللسانية المتحققة في النص الروائي[5].

ويرى أن هذا التمييز إنما تمييز نسبي، كون سوسيولوجيا الأدب قد استفادت من الدراسات اللسانية الحديثة، الأمر الذي دفع إلى رسم هذه الحدود أكسبها وسائل جديدة في التحليل، ميزتها عما كانت عليه سابقا، لذا توصف بأنها سوسيولوجيا أدبية، بينما لا يمكن نعت سوسيولوجيا الرواية بأنها سوسيولوجيا النص الروائي بسبب الفرق الواقع بينهما. وهو التمييز منطقيا قائما على أساس أن سوسيولوجيا الرواية رغم ادعائها بتحليل النص من الداخل كما رأينا عند (غولدمان)، فإن ذلك بقي مجرد كلام نظري لم يرق إلى وضع أدوات إجرائية، مكتفيا بحدس الناقد، مما جعل دراسة بنية النص تميل إلى الانطباعية، وهي الثغرة التي تجاوزتها سوسيولوجيا النص الروائي بامتلاكها أدوات التحليل المستمدة من اللسانيات .

ميخائيل باختين (MIKHAIL BAKHTINE): إن الأطروحات التي وضعها (باختين) تدفع إلى القول، بأنه مؤسس سوسيولوجيا النص الروائي، فقد ظهر شكلانيا يجمع بين الماركسية والشكلية، يهتم بالبنية اللغوية للنص، متأثرا بالماركسية، معتبرا اللغة وطيدة الصلة بالأيديولوجيا، لذا ركز على العلاقة بين البنية اللغوية للنص، والبنية الاقتصادية والاجتماعية، بوصفها مهاد الأيديولوجيا، بعيدا عن نظرية الانعكاس المباشر، بل إن الأيديولوجيا من منظور (باختين) لا تنفصل عن وسيطها اللغة، «اللغة التي هي نسق علامات ينبني اجتماعيا هي نفسها واقع مادي»[6].

---

[5] – المرجع نفسه ص72.

[6] – رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور دار قباء القاهرة (د ن ط) 1998 ص38.

وعليه يوجه النقد للمنهج السوسيولوجي، ويعتبره فشل في مسعاه بسبب تركيزه على الشكل الوحيد من التفاعل السببي القائم بين الأدب والوسط الاجتماعي، بينما تحوّل الأدب هو ذاته عالم اجتماعي، يخضع لتأثيرات اجتماعية أخرى؛ ومع ذلك فليس في مقدور هذا المنهج الكشف عن الجوهر الفني[7]، من هنا عمل (باختين) على إكمال هذا النقص موضحا «أن الرواية هي النوع الأدبي الوحيد الذي ما زال قيد التشكل، ولذا فإنها تعكس بشكل أساسي وبعمق وسرعة تطور الواقع نفسه، وما هو قيد التشكل يستطيع وحده أن يفهم ظاهرة الصيرورة، وأصبحت الرواية وهي البطل الأساسي للدراما التي يبرزها التطور الأدبي في العصر»[8].

ويعيد (باختين) ترتيب الرؤى التي سبقته مؤسسا عمله على أمرين: الأول اللجوء إلى الثقافة الشعبية كأفق ومادة للأعمال العظيمة، والثاني تعدد الرؤى للعالم التي تمثلها الخطابات المتضمنة في الرواية[9].

وتتضح علاقة اللغة بالواقع في تحليلات (باختين) ضمن مفهومه للغة، حيث يشرح في إطاره علاقة الرواية بالوضع الاجتماعي والاقتصادي، ولكي نفهم ذلك علينا بسط هذا المفهوم، وبداية ننبه إلى أن الباحث لم يهتم باللغة كعنصر تجريدي كما فعلت البنيوية، بل على العكس اعتبرها ظاهرة اجتماعية أقام عليها دراساته للخطاب الروائي.

منطلقا من فكرته المتمثلة في أن كل ما هو أيديولوجي يمتلك مرجعا، ويحيل على شيء ما يحتل موقعا خارجا عن موقعه، بمعنى أن كل ما هو أيديولوجي هو في الآن

---

(7)– محمد مقلد: الشعر والصراع الأيديولوجي، دار الأدب، بيروت ط1/1996 ص116

(8)– ميخائيل باختين: الملحمة والرواية، ترجمة جمال شحيد، كتاب الفكر العربي، معهد الإنماء، بيروت ط1/1982 ص24.

(9)– رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور ص38و انظر محمد عزام تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق(دن ط)2003ص236.

بتي دليلا[10]؛ أي أن اللغة هي من جهة دلائل، ومن جهة أخرى وفي الوقت نفسه أيديولوجيا، يتواصل بوساطتها أفراد الجماعة المتحدثين بها، وهذا ما يجعل دراستها هي دراسة للعلاقات الاجتماعية دون السقوط في رتابة الانعكاس المباشر لوعي طبقة اجتماعية ما أو لأيديولوجيتها، الأمر الذي يجعل منها عنصرا سلبيا، وهكذا تصير الرواية هي نفسها واقعا وأيديولوجيا من منظور لساني.

مثل هذه الرؤية تتجاوز الرؤية السوسيولوجية، التي تنظر إلى العلاقة بين الخطاب الروائي والواقع نظرة آلية، وهنا لا بد من فهم خصوصية النص الروائي، وأشكاله وأساليبه، وما يتضمن من رؤية للعالم، دون تهميش المبدع، الذي يختار جنسا أدبيا من بين أجناس أخرى للتعبير، وهي فكرة ليست بالجديدة فقد عرفت عند (لوكاتش) و(غولدمان).

من هذا المنطلق يؤسس (باختين) دراسته للرواية، مركزا على البنية الشكلية، والعناصر التي أثرت فيها، كما تقدمها اللغة نفسها، وكذا الكشف عن الدلالات التي تنتجها التشكيلات والتغيرات اللغوية في موقف اجتماعي خاص بالمتكلم والمستمع، فتصبح «ممارسة اللغة في الحالات جميعا شرطا لوجودها، فكما أن الكلمة لا تقوم إلا في توجهها إلى آخر، فإن اللغة لا تتعين إلا في أشكال تبادلها الاجتماعي، فالفرد لا يتكلم إلا من خلال كلام آخر، والآخر لا يرسل الكلام إلا بسبب كلام وقع عليه، تأخذ اللغة في نقل التبادل الكلامي الملازم لها، شكل صيرورة مفتوحة، قوامها التنوع الكلامي الصادر عن بشر أحياء، لهم شروطهم الاجتماعية المشخصة المختلفة»[11].

ويؤكد (باختين) على أنه لاشيء فردي ما دام إنتاج الكلام ليس فرديا، إنما هو نتيجة متكلم وسامع يعد رد فعله على ما يسمع من كلام أمرا مسبقا، لذا لا يمكن

---

(10) -- حميد لحميداني: النقد الروائي والأيديولوجيا ص74.

(11) -- فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط1/1999، ص...

تجاهل دور هذا الأخير، نظرا لدوره المهم في العملية الإبداعية، إذ يتضمن صوت الأديب وعي الجماعة المنتمي إليها، بما في ذلك المستمع الذي يعمل كصوت هدفه إقامة علاقات اجتماعية.

ويمكن النظر إلى هذه العلاقة على أنها الوضعية الاجتماعية التي تحتضن تكوّن الكلام، لذلك ليس شرطا أن يتوجه المتكلم مباشرة إلى مستمع، لأن الكلام وحتى الشعور بالذات، يتضمن تلقائيا الآخر، المعلن عن بداية ما هو اجتماعي، بمجرد ظهوره في النصي، أو الكلام، فالإنسان لا يمكن اعتباره منتجا ثقافيا إلا وهو جزء من كيان اجتماعي ينتمي إلى طبقة ما، يعبر من خلالها.

الأمر الذي جعل (باختين) يدرس تاريخ الكلمة الروائية في صراع القبائل والشعوب والثقافات؛ أي وضعها في إطارها البشري، حيث تتراجع الثقافة، واللغة الأحادية والمطلقة، وتعد هذه الرؤية أساس أطروحة (باختين) الخاصة بالرواية، يلخصها في تعريف الرواية بأنها أثر انتقاد لغات متعددة للغة واحدة مسيطرة[12].

وتعد مسألة الثقافة كما يفهمها (باختين) قضية لا تظهر كتقدم خطي مستمر، إنما تفعل ذلك بوصفها انبعاثا فظا، تتسم بالجماعية، تجعل من نفسها وسيطا، ينضاف إلى مفهوم الرؤية للعالم، وهي في الآن ظاهرة لسانية، تجعلها هذه السمة وسيطا رئيسا، يشكل موضوعا للسانيات والنقد على السواء[13].

لقد انتبه (باختين) إلى أن الفن الكارنفالي هو الذي أنتج أدب الفكاهة، والسخرية، والضحك، تميز بموقفه الجديد من الواقع، دون الاستناد إلى الموروث، بعيدا عن تفسير نفسه بنفسه، في المقابل يجعل العلمية المباشرة عمادا له، متبنيا أسلوبا متعددا جامعا بين المتناقضات، بين السامي والوضيع، والجاد والهزلي؛ معتبرا

---

[12]– المرجع نفسه ص75.

[13]– جان إيف تاديه : النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة منذر عياشي مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، سوريا ط1/1994 ج2 ص133.

هذا الأدب مصدرا أمد الرواية الغربية بمادة وفيرة، وأساليب متعددة، ليخلص أخيرا إلى أن أصل الرواية كرنفالي لما تحتويه من أساليب كرنفالية[14].

لذا يجعل من التعدد الثقافي شرطا لكل نوع أدبي يتضمن التعدد، بينما يعتبر المجتمع المفتوح الوسط الذي يوفر أفقا رحبا للكلمة الأدبية، فإذا توفر مثلا شرط الضحك الشعبي في مرحلة ما، فإنه ينتج هذه الكلمة، بما أنه هو أيضا.

حوار وانفتاح.

فإذا كانت الرواية نتاجا للبورجوازية عند (لوكاتش) جاءت بديلا للملحمة، فهي لدى (باختين) نتاج الأشكال التعبيرية الشعبية التي ظهرت في أوساط الطبقات الشعبية خلال فترة القرون الوسطى، وهي ما اصطلح عليها بالكرنفالية أوالاحتفالية.

من هنا تخلى عن فكرة الانعكاس المباشر الذي وصف به الأدب ردحا من الزمن، وجعله يتناول الرواية على أنها شكل فني، أو بنية يحاول الكشف عن الكيفية التي عبرت بها عن طبيعة اللغة الحركية.

تكتسب اللغة إذن دورا رئيسيا في دراسة (باختين) للرواية، والتنظير لها، ليس المقصود هنا اللغة المجردة الثابتة، إنها تلك الممتلئة بالقصدية والوعي، السائرة من المطلق إلى النسبية، إنها الكلمة الخطاب، الملفوظ المتواجدة خارج تصنيفات المعاجم، تتموقع في كلام المتحدثين داخل الرواية، لتكشف عن نوعية العلاقات القائمة بين الشخصيات، والقصدية الكامنة في حواراتهم وسلوكهم[15].

يظهر أن (باختين) يؤسس منهجه في دراسة الأدب، والرواية خاصة على أساس لساني، باعتبار الخطاب الروائي دليلا لسانيا، يأخذ مدلوله من الجماعة، كما فعل

---

[14]– عبد الله إبراهيم : السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري، وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1/2003 ص75.

[15]– مخائيل باختين: تحليل الخطاب الروائي ترجمة محمد برادة مقدمة المترجم، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط1/1987 ص16.

ذلك (غولدمان) وهو يحدد مفهوم الرؤية للعالم، حيث عدها نتاجا جماعيا، مع فارق المنطلق النساني عند الأول، الذي جعل من الخطاب الروائي كلا مشكلا من أنساق دلالية أو أيديولوجية، وربطه بالبنية التحتية الاجتماعية والاقتصادية، وإعطاء الفرد دورا فعالا في عملية الإبداع عن طريق الوعي الممارس بوساطة الكلمة الأدبية؛ يؤسس من خلاله ذاته ضمن تعدد وجهات النظر المتوارية في النص، لذا يقـــول: «إن الذات المتكلمة، مأخوذة من الداخل، تصبح وبصورة كلية نتاجا لعلاقات اجتماعية متداخلة، وليس التعبير الخارجي وحده هو ما يقع ضمن حدود الأرض الاجتماعية، بل الخبرة الداخلية أيضا، ومن ثم فإن السبل التي تصل الخبرة الداخلية (المعبر عنها) بعملية تحويلها إلى موضوع خارجي(التلفظ) تقع بكاملها ضمن الأرض الاجتماعية»[16].

هكذا ينتج الوعي الفردي حين يتماس الفرد مع الجماعة، وهي القاعدة التي حددت فكرة (باختين) عن الرواية، حيث تكون الشخصية فيها خارج سيطرة الكاتب، تتحرك وفق وجودها الاجتماعي، باعتبار وجودها المشروط وتفاعلها مع الجماعة التي تنتمي إليها، ما دامت مشكلة داخل وعي أفراد هذه الجماعة ذاتها.

وتختص الرواية أيضا بسمة أخرى، هي نتيجة لمنهج (باختين)، إنها تعدد الأصوات، السمة الجوهرية في الخطاب الروائي، كون الرواية من طبيعتها الجمع بين أصوات متعددة، فقد لاحظ في دراسته لـ"أوجين" أشكالا لسانية، وأسلوبية مختلفة، تنتمي إلى أنساق متنوعة للغة الروائية، لذلك تعد حوارية تماما؛ ونتلمس مثل هذا الطابع كذلك في الروايات التي تشكلت وسط الأجناس الشفوية، الشعبية، إذ نقف على صور لنصراع القبائلي القديم، والشعوب، والثقافات، واللغات المتعددة، والمختلفة، والمتناقضة في كثير من الأحايين، كما نجد الضحك، وتعدد الأصوات،

---

(16)ـ نقلا عن تزيفان تودوروف : ميخائيل باختين المبدأ الحواري، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروط2/1996 ص74.

لقد «تنظم التعدد اللساني في شكله الأكثر وضوحا، وبنفس الآن، الأكثر أهمية لتاريخ داخل نصوص ما يسمى بالرواية الهزلية»[17].

ويعتبر (باختين) عالم تعدد اللغات، المتنوع اجتماعيا، والذي شهدته الفترة الكلاسيكية المتأخرة، قد أنتج اتجاهين أسلوبيين: واحد مثلته أعمال الرومانس الإغريقية، يعمل الكاتب فيه على توحيد أسلوب متجانس، يهيمن على جميع الأصوات المتعددة، الناتجة عن تعدد اللغات، والمواد المستعارة من أنواع أدبية مختلفة، وهو الأسلوب ذاته المهيمن في أعمال رومانس القروسية خلال القرون الوسطى، وكذا في الرواية التاريخية، والعاطفية المكتوبة في القرن السابع عشر، والثامن عشر؛ أما الثاني فيترك الحرية للغات المتعددة والمتصارعة داخل التعدد اللغوي (لغة المؤلف، والراوي، والشخصيات) لتتكلم حسب ما تمليه ظروفها، وفق أسلوبها الخاص، معبرة عن نظام معتقدات واحدة، ووجهة نظر اجتماعية واحدة[18].

أما الشكل الأكثر تعقيدا وتعددا في أصواته، فهو الكرنفال، حيث يصل فيه التعدد حد التشتت، لكنه استطاع أن ينتظم، ويصبح مجسدا لصراع منظم داخل المجتمع، بفضل نضج الطبقات، وهي تصارع الرأسمالية، ومن ثم فالرواية الناضجة هي الرواية الديالوجية؛ أي الحوارية، وليس المنولوجية، وعليه يقارن في كتابه "شعرية دوستويفسكي" بين هيمنة الصوت الواحد على الشخصيات في رواية (تولستوي)، وبين تعدد الأصوات من خلال التعبير الحر، الذي تمارسه الشخصيات في رواية (دوستويفسكي) بوسائل متنوعة، منها[19]:

---

[17]- ميخائيل باختين : تحليل الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة ص73.

[18]- ولاس مارتن : نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، د ن ط، 1998 ص68.

[19]- حميد لحميداني: القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ط1/2003 ص22.

أ- التهجين: وهو تضمين ملفوظ واحد للغتين اجتماعيتين تنتميان إلى حقبتين مختلفتين، أومجتمعين مختلفين. وهو نوع توظفه الأشكال مثل: السخرية وضحك الشعبيين (الكرنفال).

ب-العلاقة الحوارية المتداخلة بين اللغات: وتتجسد مثلا في الحوار الأيديولوجي، والثقافي غير المباشر، وهو نمط توظفه الرواية المعاصرة.

ج- الحوارات الخالصة: وهو الحوار العادي بين الشخصيات الروائية أو المسرحية.

يترتب عن هذه الوسائل قضايا منهجية مهمة في تحليل (باختين) للخطاب الروائي، مثلا دراسة الرواية على أنها تعبير عن الكاتب، سواء اعتمد الباحث التحليل البلاغي القديم، أم التحليل اللساني الحديث، فكلاهما يوصل إلى فهم عبقرية المبدع، أو الرواية؛ لأن الدراسة تنطلق من لغة الرواية؛ أي لغة الأحداث، والعلاقات، والبنيات، والتقابلات، والحوار[20].

وقد يتمظهر الأسلوب الحواري في أشكال متعددة، بعيدا عن المركزية اللغوية، والخطاب المغلق، مما يعني الانفتاح على اللغات، والمزج بين الأساليب المختلفة، مع التفريق بين ما هو أدبي، وما هو غير حياتي، وبين الخطابات النبيلة، والخطابات الوضيعة.

هكذا تتشكل الرؤية للعالم وسط تعدد لساني، توظفه الرواية بوساطة الوحدات التركيبية والأسلوبية الآتية:

خطاب الكتب والراوي المفترضين: ويأخذان معنى مختلفا داخل الرواية، يحضران كموجهين لمنظور لساني، ولرؤية خاصة للعالم، والأحداث، والتقسيمات، والتنبيرات خاصة، سواء كان ذلك خاصا بالكاتب وخطابه المباشر الحقيقي، أم بالسرد واللغات الأدبية العادية[21].

---

[20]- حميد لحميداني: النقد الروائي والأيديولوجيا ص80.

[21]- ميخائيل باختين : الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة ص84.

أقوال الشخصيات: وتختلف من حيث استقلالها الأدبي، والدلالي؛ إنها أقوال الآخرين في لغة أجنبية، بإمكانها كسر نوايا الكاتب، وتشكيل لغة ثانية إلى جانب لغته، فلغات الشخصيات تمارس أحيانا تأثيرا على خطاب الكاتب، ترصعه بكلمات أجنبية تشكل خطابا مستترا، ومنضدا تراتبيا؛ أي أنها تدخل عليه تعددا لسانيا. إن تنوع اللغة، وتنضيدها يشكلان قاعدة لأسلوب الرواية، ففي مثل هذه الحال قد يبدو أسلوب الرواية تحت هيمنة لغة الكاتب الأحادية، مثقلا بالنوايا المباشرة والعاجلة، غير أننا نكتشف بالتحليل وراء كل ذلك خطابا ثلاثي الأبعاد، متعدد اللغات، يستجيب لمقتضيات الأسلوب، ويحدده[22].

الأجناس المتخللة: يسمح شكل الرواية المرن بتضمينها مختلف الأجناس التعبيرية الأدبية، وغير الأدبية، حيث تحتفظ وهي تشتغل داخل الخطاب الروائي بمرونتها، واستقلالها، وأصالتها اللسانية والأسلوبية، فتحمل إلى الرواية لغتها الخاصة التي يمكن أن تكون محملة بنوايا الكاتب، أو مجردة منها، فلا تكون في شكل قول، بل تظهر كشيء بوساطة الخطاب، غير أنها تنحو دوما إلى كسر قصدية الكاتب، بينما ينحرف بعضها بطريقة مغايرة عن المستوى الدلالي الأخير للنص الروائي[23].

هكذا تتحول الرواية إلى خطاب تلتقي في ساحته نصوص مختلفة، ومتناقضة، يؤدي تفاعلها إلى إنتاج البنية الأسلوبية للرواية، ويستدل (باختين) على هذا التفاعل باستخدام مصطلح الحوارية، والتلقي، وتعدد الأصوات، وتعدد اللغات؛ ولعل هذا هو تبرير تعدد الشخصيات في الرواية المنتجة لتلك الحوارية، وهي القاعدة الأساس، التي أسست مفهوم التناص.

يمكننا الآن فهم موقف (باختين) الداعي إلى إعادة النظر في دراسة الخطاب الروائي، على أساس طبيعته الحوارية، أين تلتقي الأصوات، وتتصارع دون أن تكون

---

[22]- المرجع نفسه ص84.

[23]- المرجع نفسه ص88- 89.

الغلبة لصوت على حساب الآخر، مع بقاء الكاتب في موقف حيادي. ويكون هدف الباحث الكشف عن ذلك التعدد في المستوى التركيبي، والمستوى الدلالي.

يتعامل (باختين) مع رواية أساسها الحوارية، يتجانس فيها كلام الراوي والروائي، والشخصيات، وهي رؤية تفتقر إلى الدقة حسب (فيصل دراج)، بسبب الانزياح المستمر بين أيديولوجيا المؤلف والأيديولوجيا الأدبية، بعيدا عن هيمنة الكاتب فذلك شرط تحقق النص الصادر عن عملية تحويلية أدبية متعددة لعناصره قبل أن يصير تحت إرادة المؤلف[24].

ومع ذلك يبقى التعدد اللساني في الرواية هو خطاب الآخرين ضمن لغة الآخرين، يعمل على كسر نوايا الكاتب، وجعل النص ثنائي الصوت، يخدم بتأن متكلمين معبرا عن نيتين مختلفتين: نية مباشرة هي نية الشخصية المتكلمة، ونية غير مكسرة هي نية الكاتب. إنه خطاب يتضمن صوتين، ومعنيين، وتعبيرين، يترابطان داخله عن طريق حوار داخلي، كأنهما متعارفان، وتكون في الرواية «لتلك الثنائية الصوتية جذور ضاربة بعمق في تنوع الخطابات، وفي تنوع اللغات السوسيو- لسانية جوهريا، بكل تأكيد في الرواية أيضا يكون التعدد اللساني دائما مشخصا، مجسدا داخل وجوه بشرية بينها خلافات وتناقضات مفردة لكن هنا تكون تلك التناقضات بين الإرادات والذكاءات الشخصية، منبعثة من تعدد لساني اجتماعي، هو الذي يعيد تأويلها، فتناقضات الأفراد ليست هنا سوى قمة أمواج محيط من التعدد اللساني الاجتماعي يضطرب ويتحرك، فيجعلها متناقضة بشدة مشبعا وعيها وخطاباتها بتعدديته اللسانية الأساسية»[25].

إن منهجية (باختين) وفق الصورة التي تقدمت بها تصنف ضمن ما يعرف بسوسيولوجيا النص الروائي، دون تخليها عن المادية الجدلية، التي تتجاوزها عندما

---

[24]- فيصل دراج : نظرية الرواية والرواية العربية ص87

[25]- ميخائيل باختين : تحليل الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة ص92

تعتبر العمل الأدبي مستقلا عن الواقع الاجتماعي، ولو نسبيا، إذ تنظر إليه على أنه تعدد لساني يضم أصواتا مختلفة، وأيديولوجيات تصل حد الصراع، مع احتفاظ الكاتب بحياده، غير مهيمن، وباختصار تنظر هذه الرؤية للنص عبر الحوارية العنصر الذي من خلاله يفهم الباحث النص من الداخل كبنية، تضم كل هذا التعدد اللساني، والأيديولوجي.

بيار زيما(Pierre Zim) :يبدو أن سوسيولوجيا النص تظهر جلية، وبهذا المصطلح في دراسات الناقد (بيار زيما)، خاصة بحثه المعنون بـ"من أجل نقد سويولوجيا الرواية"، الذي ضمنه دراسته "من أجل سوسيولوجيا النص الأدبي"، وفيه يدعو إلى الاهتمام بالبنية الداخلية للنص اعتمادا على تحليل سوسيولساني، وتناصي[26].

ينشغل الباحث بكشف كيفية ترابط القضايا الاجتماعية، ومصالح الجماعات على السطح الدلالي، والنحوي، والسردي، مع الاحتفاظ بالتعليق النقدي، وحكم القيمة، وتجاوز مجرد البحث عن الموضوعات، والأفكار في النص كما تفعل سوسيولوجيا الأدب؛ وهو في ذلك يقترب من (باختين)، بل يعتمد أفكاره إلى جانب مناهج أخرى. ويمكن إيجاز المعطيات التي اعتمدها في تأسيس رؤيته في النقاط الآتية[27]:

أ- النظرية النقدية عند جماعة فرانكفورت خاصة (أندرو)، والتي خصها بكتاب يحمل اسمها سنة 1974.

ب- السيميوطيقا الأدبية، كما تجلت عند (غريماس)، وكذا اتجاهاتها المختلفة.

ينطلق في استفادته من النظرية النقدية من التراث الفلسفي والجمالي الألماني، والشرقي عامة، بدءا بـ(هيجل) مرورا بـ(ماركس) و(لوكاتش) و(غولدمان)

---

(26)- حميد لحميداني : النقد الروائي والأيديولوجيا ص 84.

(27)- سعيد يقطين: انفتاح النص، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1/1989 ص25.

و(كوزيك)، حتى نظرية النص، وجماليات التلقي؛ أما السيميوطيقا الأدبية فتمثلت استفادته منها بأخذه عن (سوسير) وصولا إلى (كرستيفا) و(غريماس) و(لوتمان).

وعلى أساس التركيب بين النظرية النقدية والسيميوطيقا يؤسس سوسيولوجيا النص، التي ترى أن النص ذو طابع مزدوج؛ فهو بنية مستقلة، وفي الآن بنية تواصلية؛ أي أنه دليل مركب من العمل المادي ذي القيمة الرمزية الحسية، ومن الموضوع الجمالي المتأصل في الوعي، يحتل مكانة المعنى؛ وهذان المظهران مترابطان بشكل، لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر «إن النص ليس فقط مجسدا في إطار أنظمة مختلفة القيم، ولكنه في الآن ذاته يعبر على صعيد الكتابة عن القيم، والمعايير الاجتماعية، فالاستقلال النصي مشروط بالتطور السوسيو- تاريخي، وبذلك يتموقع النص من المجتمع، ينقده من خلال وجوده، ملحا على هذا البعد، وهو إلى جانب ذلك يرتبط بسياق عام للظواهر الاجتماعية، ويشهد كأي وثيقة تاريخية على القيم السائدة في عصره، هو يحولها بواسطة وضعيته المحاكية حيال اللغة إلى صور، إنه التصور نفسه الذي نجده عند جماعة فرانكفورت لكنه يطعمه بما تقدمه له السيميوطيقا من إمكانات في تحليل الدلالة»[28].

لقد أثرت هذه الاتجاهات في منحى سوسيولوجيا النص لدى (زيما)، فرغم اقترابه من منهج (باختين)، إلا انه تجاوز التركيز على دراسة النص نفسه إلى توخي الدقة أكثر، من أجل كشف الطريقة التي بها تتمظهر الموضوعات الاجتماعية في البنية اللغوية للنص الروائي دلالية كانت، أو تركيبية، أو سردية، وعلاقاتها الجدلية؛ ولتحقيق هذا الهدف تكون الاستفادة من المفاهيم السيميائية، وتبيان أبعادها السوسيولوجية.

ومن أجل إكمال الوصف السوسيولوجي للآليات النصية (الدلالية والنحوية)، يرى (زيما) أنه من الأفضل تقديم الواقع الاجتماعي كمجموعة لغات جماعية، بعدها يمكن الاعتماد على فرضية، يراها أساسية بالنسبة لسوسيولوجيا النص، مفادها أن

---

[28]- المرجع نفسه ص26.

النص الأدبي يستوعب، ويحول اللغات الجماعية، التي تتخذ لها دورا هاما حينما تصبح داخله [29].

وهو بذلك يضع منهج (لوكاتش) الذي يقابل العمل الأدبي بالواقع الاجتماعي بطريقة مباشرة، كواحد من التفسيرات المحتملة للعمل، يتجاهل البنيات الدلالية لأسباب أيديولوجية، مؤكدا أنه «يمكن تقديم مرة أخرى نهاية الرواية كتطور اجتماعي (تاريخي) ولساني، وتحديد، وشرح، ونقد البنيات الروائية في إطار سوسيولوجيا النص، ومن جهة أخرى فإن سوسيولوجيا الأدب المعروفة في الماضي كثيرا ما أهملت الآليات النصية، فالمعنى السوسيولوجي لرواية ما أو لدراما، لا يجب أن يتشكل في المستوى الإشاري والتوثيقي، ولا في مستوى تعريف الأخلاق الاجتماعية لمرحلة ما، بل في المخطط السيميائي والسردي»[30].

من هذا المنطلق يوجه نقده لمنهج (غولدمان) وسوسيولوجيا المضامين: في أن سوسيولوجيا الأدب اعتادت على دراسة النصوص الخيالية دون أن تحاول فهمها كبنيات لسانية، وأنظمة دالة «إن منظرين أمثال لوكاتش وغولدمان يتحدثون عن أشكال الوعي، والتماثلات البنيوية والرؤيات للعالم والحقائق التاريخية دون أن يضعوا في حسبانهم النظرية الشكلانية، التي ترى أن الحياة الاجتماعية تدخل في علاقة تبادلية مع الأدب، عن طريق مظهرها الشفهي قبل كل شيء، هذه النظرية الشكلانية التي تخلص بشكل ما مناهج سوسيولوجيا النص، لها قبل كل شيء قيمة تجريبية طال ما نحن معنيين بالبنيات اللسانية (دلالية،ونحوية، أوسردية) يمكنها تقديم حجج أكثر أو أقل

---

[29] – بيار–ف – زيما : نحو سوسيولوجية للنص الأدبي، ترجمة عمار بلحسن، مجلة العرب والفكر العالمي، ع5، شتاء 1989 ص78

[30] – Pierre v zima:L indifference romanesque, sartre, moravia, camus, Le syconore, paris 1982 p12.

تحققا منها، لكن عندما يبدأ الحديث عن الوعي أوالحقيقة التاريخية التي يعكسها عمل أدبي ما يغدو التحقيق التجريبي صعبا، وربما مستحيلا»[31].

أما النقد الذي وجهه لسوسيولوجيا المضامين، فيتمثل في كونها لا تهتم بالبنيات النصية، وتركز اهتمامها على العناصر الإشارية للخيال، فلا تشرح، ولا تعرض إلا التغيرات الموضوعاتية للأدب في علاقتها بالتطور التاريخي، كأن نقول الأرستقراطية عند(بلزاك) مثلا[32].

من هنا يرى أن سويولوجيا النص تبذل جهدا من أجل وصف الوضعية الاجتماعية، والمصالح الاجتماعية كبنيات لسانية، ويصف النقد الذي وجهه (باختين) و(فولوشينوف) إلى اللسانيات التزامنية بالأهمية المميزة؛ بناء على رؤية كتاب الماركسية وفلسفة اللغة لنظام اللغة الذي لا يكون عندهم كلية سكونية لبنيات مترابطة، إنما هو وحدة حركية وتاريخية ضمن متغيرات تستلزم صراعا اجتماعيا وأيديولوجيا. ومن ثم فالملفوظات شفهية كانت أم مكتوبة، والتي نحتاج إليها في المؤسسة الاجتماعية الخاصة، ليست حيادية، بل تعبر عن المصالح الاجتماعية المتماسكة[33].

ومن ثم فالمضمون الاجتماعي ليس «لغة كما هي نظام حيادي وسكوني؛ لكن هو مجموعة ديناميكية مسجلة بوساطة مجموع متناقضات، تتمفصل في مخطط الكلام، البنية المنطقية، وقد سميت هذه المتناقضات بالوضعية السوسيو- لسانية، وهي وضعية تتغير باستمرار في الحدود التي تقودنا فيها المتغيرات الاجتماعية إلى مستجدات لسانية في المجال الجمعي، كما في المجال الدلالي»[34] هكذا تصبح فرضيات الماركسيين غير مقنعة دائما، لأنها بعيدة عن العلاقة التجريبية، وغير قابلة

---

[31]- Ibid p16-17

[32] -Ibid p17

[33] -Ibid p18

[34] -Ibid p18 - 19

للبرهنة، لذلك فإن وصف البنيات ترابط النص الأدبي بسياق اجتماعي على المستوى التجريبي مسألة مركزية في الحقل المنهجي، ولا يتأتى ذلك إلا بتمظهر المجتمع والأدب لغويا[35].

نفهم من كل هذا أن (زيما) يعمل على تأسيس سوسيولوجيا النص الأدبي انطلاقا من اهتمامه بالخاصية المميزة للكتابة كموضوع لمنهجه من خلال دراسة السياق الصوتي والسردي باعتبارها وقائع اجتماعية متصلة بالمستوى الدلالي من منظور أن كل تحل كلامي هو بنية أيديولوجية، تعبر عن مصالح جماعية؛ إنه باختصار التركيز على ما سماه بالوضع الاجتماعي اللغوي، الذي يتضمن لغات جماعية، تؤدي دورها في الآن، وتتعالق فيما بينها.

تتضح هذه الرؤية كمنهج إجرائي في الدراسة التي طبقها على نصوص (سارتر) و(مورافيا) و(كامو)، حيث يقول: «الأمر يخص هنا توضيح أن روايات سارتر ومورافيا وكامو هي قبل كل شيء نصوص (بنيات دلالية ونحوية) التي تستوجب صعوباتها وتغيراتها المفاجئة تحولات اجتماعية، مع أن هذه التحولات لا تصنف إلا في إطار النقد السوسيولوجي فقط، حتى يمكن ربطها بقضايا الرواية، ويجب عرضها كقضايا لسانية، دلالية، ونحوية (خطابية)، ولتحقيق هذا الهدف، من الأولى الاستناد إلى سوسيولوجيا النص»[36] يقينا مثل هذا الطرح دوما في مجال البحث عن طريقة القول، وليس عن موضوعه، مما يجعل(زيما) يعمل على التنظير لمنهج جديد يسير في ركب نظرية سوسيولوجيا الأدب، التي تربط الدارس بالنص المدروس بعلاقة حميمة .

فلا غرابة إذن من أن يوجه النقد لـ(جيرار جينيت)، حيث يذهب إلى أن دراسته القائمة على التحليل التقني الشكلي لا يمكنها إقامة العلاقة بين البنية السردية، والبنية الاجتماعية، لأنها تحتمل الأساس الدلالي للسرد، رغم أن المصالح الاجتماعية تتجلى

---

[35]- بيار زيما: **نحو سوسيولوجيا النص الدبي، ترجمة عمار بلحسن ص79.**

[36] – **Ibid p15.**

بوضوح في اللغة؛ أي على المستوى الدلالي والمعجمي، إن (جينيت) يكتفي بوصف التقنيات السردية دون الاهتمام بما تتضمنه من أيديولوجيا[37].

ولسبب منهجي يعتقد (زيما) أنه من غير الممكن أن تستفيد سوسيولوجيا الأدب من السرديات الشكلية، لأن ذلك سيعد انتقاء، يؤدي إلى تفاوت دلالي بين الحجج السيميائية والحجج السوسيولوجية، لذا تعد بلورة منهج سيميائي سوسيولوجي في رؤية منسجمة (سوسيوسيميائية) أمرا مستحيلا؛ لأنها عندئذ ستكون نظرة توسعية، لا تحقق الهدف المنهجي، ولا يتحقق ذلك إلا بالاعتماد على بعض النظريات السيميائيات الموجودة، التي بإمكان مفاهيمها إثراء سوسيولوجيا الأدب، وجعلها أكثر دقة[38]. تكون هذه الرؤية الزاوية التي من خلالها نظر إلى السيميائية البنائية، وبالتحديد تلك التي طورها(غريماس) و(ل. ج. بريتو)، و(جوليا كرستيفا) و(أمبرتو إيكو)، على أنها تستطيع مساعدة الباحث السوسيولوجي بما تقدمه من مفاهيم، تساعد على وصف العلاقة القائمة بين الأدب والمجتمع، وكشف ما هو أيديولوجي في المستوى الخطابي. وهكذا وجب على سوسيولوجيا النص أن تقوم بما يلي:

وضع علاقات نسقية بين المفاهيم السيميائية ذات الطابع السوسيولوجي.

بلورة وتطوير الأبعاد السوسيو– لغوية، والسيميائية لبعض النظريات السوسيولوجية خاصة النظرية النقدية لمدرسة "فرانكفورت".

ولتقديم تصوره الخاص بسوسيولوجيا النص، يستند (بيار زيما) إلى نصوص مقتبسة من رواية "الغريب" لـ(ألبير كامو)، ورواية "البصيص" لـ(ألان روب غرييه)، ورواية "البحث عن الزمن المفقود" لـ(مارسيل بروست)، والهدف من هذا هو تمثيل مختلف مستويات النص، على أنها بنيات لسانية واجتماعية، ثم الاستعانة ببعض

---

(37)– بيار زيما : نحو سوسيولوجيا للنص الأدبي، ترجمة عمار بلحسن ص81.

(38)– المرجع نفسه ص81.

المفاهيم السيميائية، وتوظيف أبعادها الاجتماعية؛ إذ أن العالم الاجتماعي ما هو إلا مجموعة من اللغات الجماعية، توظفها النصوص وتحولاتها.

يطرح (زيما) من جهة أخرى نظريتين هما في الأساس مسلمتان «إن القيم الاجتماعية لا توجد أبدا مستقلة عن اللغة، والوحدات المعجمية الدلالية والنحوية تمتص المصالح الجماعية، وإنها لتستطيع أن تصبح رهانا لصراعات اجتماعية واقتصادية وسياسية»[39].

ولا يعني تبني هذه الرؤية اختزال الظواهر الاجتماعية، والجماعات إلى ظواهر نصية، إنما الهدف تحقيق علاقات بين النص والمجتمع بوساطة عرض المصالح والمشاكل الاجتماعية على المستوى اللغوي؛ لأنه العرض القادر على تحقيق العلاقة بين ما هو أدبي، وما هو اجتماعي في نهاية التحليل دون الحاجة إلى مفاهيم المحتوى الاجتماعي، ورؤية العالم وغيرها؛ فتتخذ الأيديولوجيا بعدا جديدا، أثناء إعادة صياغتها في سياق سيميائي مرتبط بمفهوم الخطاب، ومفهوم اللغات الجماعية[40].

يستفيد (بيار زيما) استفادة مزدوجة، يؤسس عليها منهجه السوسيونصي الذي يجعل من النسق اللغوي مجالا، تتمظهر فيه المصالح الاجتماعية، وهنا نسترجع (باختين)، حين يرى أن القضايا الاجتماعية والاقتصادية تعرض في الخطاب الأدبي على شكل قضايا لسانية، فيما سماه بالتناص؛ تغدو كل محاولة للفصل بين البنية اللغوية للنص ودلالته الإيديولوجية عملية لا جدوى منها؛ لكن (زيما) يطور رؤية (باختين) مضيفا موقف النص من الأيديولوجيات المتناصة في مستواه اللغوي، فإما أن يكون معارضا لها، أو مساندا، فداخل «إطار سوسيولوجية النص تظهر اللغة والنسان كنسق تاريخي، تفسر التغيرات (القاموسية، الدلالية، والتركيبية، النحوية) التي تحدث داخله بالعلاقات مع النزاعات بين المجموعات الاجتماعية، ومن ثم بين

---

[39]- جان إيف تادييه: النقد الأدبي في القرن، ترجمة منذر عياشي ج2،ص138 – 139.

[40]- بيار زيما: نحو سوسيولوجيا للنص الأدبي، ترجمة عمار بلحسن ص90.

اللغات الجماعية المؤسسة»[41]. وقد تطورت فكرة التناص على يد (كرستيفا) بعد ما بلورها (باختين) نظريا، وتمثل أهمية خاصة بالنسبة لسوسيولوجيا النص، بفضلها يمكن كشف العلاقة بين النص ومجموع النصوص المشكل منها، لأن النص الأدبي ليس كلا مغلقا، بل يجب كشفه على أنه بنية حوارية(ديالوجية)، ورد فعل على النصوص الأخرى كما ذهب (باختين).

لذا يكون تحليل رواية ما لكشف وظائف الأيديولوجيات داخلها، بالنظر إلى (الأيديولوجيات) على أنها لغات، لأنها تتواجد عيانيا وتجريبيا. في هذا الإطار لا يفرق (زيما) بين تناص خارجي، وآخر داخلي «الأول هو مجموع العلاقات التي ينسجها نص تخييلي مع نصوص ليست تخييلية تاريخية أومعاصرة...بينما التناص الداخلي (العلاقات بين النصوص التخييلية المعاصرة أو التاريخية)، لا يمكن أن يفسر مستقلا عن التناص الخارجي، أي لا يفسر مستقلا عن اللغات الجماعية والوضع الاجتماعي»[42]، ويعتبر أن هذا التعريف قد ساعد على إعادة الاعتبار لنوعية وخصوصية النص الأدبي. ونستخلص أن الأيديولوجيات المختلفة، والموظفة في النص بواسطة اللغة في مفهوم (زيما) هي قضايا لسانية، ترتبط بنظيرتها الاجتماعية كنصوص تتلاقى داخل النص الأدبي، بتنوعها الاجتماعي والفني والتاريخي.

وبما أن مفاهيم سوسيولوجيا الأدب، قد جعلت الإيديولوجيا أكثر ريبة، فإن سوسيولوجيا النص، وعن طريق التناص، وما يتضمن من لغات جماعية يمكنها وصف الأيديولوجيا داخل النص، من خلال تحديد الوضعية السوسيو- لسانية للنص، كما عاشها الكاتب، وأفراد جماعته، حيث نجد اللغات الجماعية هي الأهم بالنسبة للرواية، أو أي نص أدبي آخر مع توضيح كيفية توليد بنية أدبية خاصة بتوظيف هذه اللغات والخطابات الجماعية؛ وبذلك يدرس النص في سياق حواري (ديالوجي) وهي

---

[41]- المرجع نفسه ص89

[42] -Pierre.v.zima: L indiffirence remanesque p23 – 24

عملية يتم فيها ربط النص بالخطابات التي يتفاعل معها، وهو يوظفها أو ربما يحاكيها بسخرية. على أساسها يفسر البنيات الدلالية والسردية[43].

يصل (زيما) إلى نتائج تختلف عن تلك التي توصل إليها (باختين) بتحييده المؤلف، معتبرا النص في كليته صوتا إيديولوجيا، يتخذ موقفا من الأصوات التي شكل منها حواريته الخاصة.

وفي المقابل يحمل (زيما) مصطلح اللغات الجماعية شحنة إيديولوجية، حتى ينسجم مع الوضعية المحددة للإيديولوجيا، وهي الوضعية السوسيو- لسانية المعبرة عن المصالح الاجتماعية والاقتصادية، وهي في الحقيقة عودة صريحة من طرف (بيار زيما) للمنطلقات الجدلية، إذ يتخذ النص وظيفة، وموقفا ضمن الصراع الإيديولوجي، مع احتفاظه بتميزه، فيدرس ذلك في إطار اللسانيات كما طورها الشكلانيون، وسوسيولوجيا النص عند (باختين)، ومفهوم التناص عند (كرستيفا) «إن تحديدا لسانيا (دلاليا) للإيديولوجيا، ربما يسمح بوضع الإيديولوجيا في المخطط ذاته للكتابة التخيلية بقضاياها الخاصة (دلالية، سردية، معجمية) فيقيم علاقة بين الإيديولوجيا والتخييل»[44].

يركب إذن (زيما) بين ما جهد من أجل تحقيقه الشكلانيون، وهو البحث عن الكيفية التي بها يقول النص؛ أي الجانب الشكلي، وبين ما حاولت الماركسية القيام به؛ وهي تسعى إلى كشف مضامين النص الاجتماعية والاقتصادية؛ أي العوامل التي أدت إلى تكوين النص.

ويتضح ذلك في دراسته لروايات (مارسيل بروست)، حيث بدأها بتحديد الوضعية السوسيو- لسانية في عصر الكاتب وقبله بقليل، ثم ثانيا كشف عن الدور الذي أدته النقاشات في مجتمع الصالونات باعتبارها لغات جماعية خاصة، تعاطى

---

[43] – بيار زيما : نحو سوسيولوجيا للنص الأدبي، ترجمة عمار بلحسن ص97

[44] –Ibid p 24

معها (بروست)، وثالثا حاول الوصول إلى طبيعة احتواء الروايات لنقاشات الصالونات، والتطورات التي مرت بها، عن طريق السخرية والمعارضات[45].

إن (زيما) وهو يوظف مفاهيم أساسية كالبنية السوسيو- لسانية، والتناص، واللغات الاجتماعية، والإيديولوجيا، إنما يحاول الوصول إلى الوظيفة المزدوجة (اللسانية، والسوسيولوجية) للنص، ثم يعمل على تحديد معناها، ودورها في إطار النظام السوسيو- لساني؛ أي معرفة دور الخطاب في بلورة الحوار الديالوجي، والموقف الذي يتخذه من الواقع متجاوزا تحييد الكاتب كما فعل (باختين)؛ وهو بذلك يقدم عملا رائدا ينير جوانب أخرى من النص الأدبي وفق نظرة جديدة، تجمع بين علوم مختلفة، تعمل على إيجاد نوع من الانسجام فيما بينها، داخل النص الروائي؛ يتخذ منها الباحث أدواته لقراءة جديدة تساعد على فهم الإبداع الروائي أكثر، وإن كانت لا تتصف بالشمولية كغيرها من المعارف المختلفة، فإنها رؤية خصبة بآلياتها الإجرائية، لما تجمعه من مفاهيم متنوعة، لم تكن متوفرة من قبل، يستفيد منها النقد في دراسه للرواية.

---

(45)- حميد لحميداني: **النقد الروائي والإيديولوجيا ص 89**

لقد حاولت استعراض الدراسة السوسيونصية للأدب، تأسيسا على ما قدمه (لوكاتش) و(غولدمان)، وصولا إلى (باختين) و(بيار زيما) الذين بلورا المنهج السوسيونصي، والقصد من هذا العرض جعل الآراء المعروضة تنساب في شكل حواري؛ أي وجهات نظر تتحاور فيما بينها، حتى نتمكن من النظر إليها معا، لأجل الاستفادة منها بشكل أفضل، وهي تتقدم كأصوات متعددة تحقق التواصل بين النص الروائي والقارئ بإزالتها الحجاب عن النصوص، ثم تقديمها للمتلقي.

لذا تتركز مهمة الباحث على كشف نظام بنية النص، وتحديد عناصره، بحيث تتجلى أبعادها السوسيولوجية، التي في الأساس معدلة من طرف الكاتب، لتجعل من النص لسانيا واجتماعيا رؤية للعالم. ويتحقق ذلك بالنظر إلى النص الروائي على أنه بنية سوسيو- لسانية، يعمل الباحث على إدراك الدلالة انطلاقا من البنية الشكلية بعيدا عما هو خارج عنه، مع الاستعانة بمختلف المجالات المعرفية التي من الممكن أن تساعد في كشف مستويات النص.

ونعود لنزعم أن منهجا كهذا قادر على أن يوفر للناقد العربي فرصة يستطيع من خلالها التواصل مع النص، وتقديمه للقارئ دون السقوط في الإسقاطات الإيديولوجية والسياسية، اعتمادا على الحدس الفردي الذي يجعل الدراسة غارقة في الانطباعية.